سعيد الأفغاني

نظرات في اللغة عند ابن حزم الأندلسي

محاضرة ألقيت في مهرجان ابن حزم والشعر العربي في مدينة قرطبة ،
بمناسبة مرور تسعمائة عام على وفاة الامام ابن حزم الأندلسي

دار الفكر - بيروت .

طبعة ثانية .　　　1389 هـ - 1969 م .

تحية جامعة دمشق

في مهرجان (ابن حزم والشعر العربي) بمدينة قرطبة [1]

أيها السادة

ساعات سعيدة لا تنسى ، نعيشها في هذا القطر الخير ، العزيز على كل عربي بل على كل مثقف يقدر المثل العليا مثل الحق والخير والجمال . فعلى هذه الارض سمت قبل مئات الاعوام ، حضارة حملت الى الناس الرقي والاسعاد ، ونعم بخيرها الملايين من مختلف الاجناس .

ولئن كانت ذكرى الاندلس ، تبعث في نفوس المسلمين كافة شيئاً من الزهو تشوبه حسرة على حضارة شادها الاسلام في هذه الديار ؛ ان مما يشيع الرضى فينا أن نجد الشعب الإسباني الصديق بحكومته وجماهيره وبيئاته العلمية، حانياً على تراثنا الانساني ، غير مقصر في تقديره ورعايته والكشف عنه ونشر آثاره . بل نرى اليوم بين الامة العربية والشعب الاسباني أواصر من المودة متّنها هذا التراث الذي يخدمه الفريقان معاً ، كما متنها وعي جديد قام في نفوسهما أخيراً ، لروابط قوية استمرت ثمانية قرون .

---

١ – خطاب الاستاذ سعيد الافغاني ممثل جامعة دمشق ألقاه في حفلة افتتاح الذكرى المئوية التاسعة لوفاة ابن حزم في « قاعة الزليج » في قصر قرطبة على مقربة من مسجدها الجامع في ١٩٦٣/٥/١٢ ، وكانت لجنة الاحتفال مؤلفة من الحاكم المدني ومحافظ قرطبة ومجلسها البلدي ورؤساء جامعات أسبانية ورئيس مجمع قرطبة ، ورياسة الشرف لرئيس الدولة الاسبانية وقائد جيشها الاعلى الجنرال فرنكو .

وهل أدل على ذلك من هذا المهرجان تقيمه بلدة قرطبة لابنها العظيم ابن حزم، وتحتضن معه شعرنا العربي ترجمان أرواحنا ؟ ومن رعى مقدساتك فقد بذل أقصى مودته القلبية ، وقديماً عبر عن مثل صنيعكم هذا النبيل شاعر عربي قديم حين قال :

صان لي ذمتي واكرم وجهي   إنما يكرم الكريمَ الكريمُ

زرت هذه الديار الحبيبة قبل سبع سنين (سبتمبر ١٩٥٦ م) بعد غربة في الأقطار الاوربية امتدت أربعة أشهر ، فحين غادرت المطار وتجولت في مدريد ، تنفست في جو بلادي (الشام) ، وطالعتني وجوه وسحن جعلتني في بعض لحظات الذهول أظنها وجوه الشامين في أسواق دمشق . وصدقوا ياسادة أني في تجوالي في حارات قرطبة وإشبيلية وغرناطة كدت أدخل بعض الدور المفتوحة الابواب على أنها دور أصدقائي وأحبابي الباقية على طرازها العربي الاصيل في حي القيمرية أو حي القنوات بدمشق : بأبوابها الخشبية المزدانة بالمسامير الصفر المدورة ، ودهاليزها المشرقة المزينة ، وصحونها السماوية الفسيحة المتأرجة بالرياحين والورود العبقة وأشجار النارنج ،الشادية بخرير المياه في بركها ونوافيرها كأنها جنان الخلد . ووجدت نفسي مفتحة لكل إسباني ألقاه مرجحاً أن بيني وبينه رابطة دم أو رابطة روح .

فاسمحوا لي إذن أن أنقل إلى قرطبة عاصمة الامويين في الغرب تحية حارة كريمة من دمشق عاصمة الامويين في الشرق ،

ومن مسجد بني أمية في دمشق إلى مسجدهم الجامع في قرطبة ،
ومن سلائل الامويين في الشام إلى أقربائهم وأصدقائهم في الاندلس ،
ومن نهر بردى كوثر دمشق ألى نهر الوادي الكبير كوثر قرطبة .
ومن حمص الشام الى إشبيلية حمص الاندلس ،
ومن دمشق الشام إلى غرناطة : دمشق الاندلس ،
ومن رصافة المشرق إلى رصافة المغرب ،

ومن بغداد حاضرة العلم الكبرى في المشرق إلى قرطبة حاضرة العلم الكبرى في الاندلس ،

ومن جامعة دمشق إلى جامعات الاندلس ،

ومن نخلة وزيتونة وشجرة نارنج أو برتقال في دمشق إلى بناتها من نخيل الاندلس وزيتونه ونارنجه وبرتقاله ،

وأخيراً من كل ما هو عربي إلى كل ما هو إسباني .

• • •

وبعد ، فما أعجب ما شهدت السنوات الاخيرة من انقلاب في الافكار والنفوس والقيم في أمم الحضارة : لقد حل التآلف والتعاون والتقارب محل التجافي والتناكر والتباعد ، ولن تمضي سنوات حتى يصبح العالم كسكان البلد الواحد يهتم من أقصى مشرقه بما يصيب أخاه الإنسان في أقصى المغرب فيسعى لخيره وإنقاذه ، أما العلماء فقد سبقوا السياسيين في هذا المضمار ووصلوا قبلهم : بالامس حضرت مهرجان الفيلسوف العربي الكندي ومدينة بغداد وشهدت علماء وأدباء تداعوا من كل الامم وجميع الاقطار لتحية بلد الحضارة في العصور الوسطى وتمجيده والكشف عن معالمه ، وتعاونوا جميعاً في الابانة عن فضل ابن بغداد الفيلسوف الكندي وما قدم للتراث الفلسفي من خدمات ، وشهد الله لقد كانوا كأعضاء الاسرة الواحدة صينيهم ، وامريكيهم ، هنديهم وباكستانيهم ، فرنسيهم وعربيهم .

واليوم اعاين هذا المشهد المسعد للنفس، في افاضل من أجناس شتى عرفوا ابن حزم وقدروا علمه وجهاده ونبوغه ، وتوافدوا الى هذه الدارة يحيونه في بلده ومنزله ، ويمجدون عبقريته ونفسه النبيلة الثائرة . فالشكر كل الشكر للحكومة الاسبانية ولمنظمي هذا المهرجان في قرطبة منافسة بغداد أمس في عصرهاالذهبي، كما تنافسها اليوم بتمجيد عبقريها ابن حزم . وإن من المصادفات السعيدة أن

تضم ستة أشهر – وهي زمن قصير –مهرجان الكندي في بغداد، ومهرجان ابن حزم في قرطبة .

في الختام اسمحوا لي أن أحييكم يا أصدقاء ابن حزم بتحية طالما عطرت – وهي ترتفع إلى السماء – اجواء هذه الديار مئات السنين ، التحية التي نرجو جميعاً أن يحقق العالم معانيها بعد قليل ، تحية الاسلام : السلام .

سعيد الافغاني

عميد كلية الاداب بجامعة دمشق



نظرات في اللغة عند ابن حزم (*)

(١)

أريد أن أحتاط في الأول ، فأقرر أن ما وصلت إليه من أحكام موقوت ، إلى أن نظفر من آثار ابن حزم بما يغير منهـــا ، فابن حزم كما تعلمون من الأفذاذ الذين لا يستطاع علمياً إرسال الحكم فيهم باتاً حاسماً ، لأن معظم آثاره مفقود ، فإن أمكن تقدير مانشر منها وهو القليل فلن يمكن بحال إطلاق الأحكام الشاملة ؛ حتى في نظرتنا إلى لغته ، فقد يظن

* المحاضرة التي افتتح بها المهرجان جلساته العلمية في قاعة المحاضرات بنادي الصداقة بقرطبة في الساعة العاشرة من يوم الاثنين في ١٣/٥/١٩٦٣ .

اشترك في إلقاءهذه المحاضرات أساتذة الجامعات العربية والأسبانية والفرنسية، وأشرفت على اعداد برنامجها لجنة تمثل المدير العام للعلاقات الثقافية في أسبانيا مع المدير العام للتعليم الجامعي ، ورؤساء جامعات مدريد وبرشلونة وغرناطة وإشبيلية ، والمجمع الأدبي الملكي في قرطبة ، ومعهد الدراسات الاسلامية في مدريد، ومدرسة الابحاث العربية في غرناطة، ومدرسة الابحاث العربية في مدريد، والمعهد الاسباني العربي للثقافة .

– عن نشرة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد .

بعض الناس أن في الاطلاع على بعض كتبه غنية في تصوير لغته وأسلوبه وهيهات ، فلكل موضوع معجمه وتراكيبه وأسلوبه .

لقد قرأ المطلعون بإمعان كتابيه العظيمين « المحلّى » و « الفصل » ، ورسائل صغيرة في علوم الشريعة ، فلما نشر « طوق الحمامـــة » ولد ابن حزم في أذهانهم ولادة جديدة ، فاذا هم أمام أديب بليغ في نثره وشعره وخياله وغوصه على أسرار النفوس وكوامن الغريزة ، يعرض عليهم من أمور الحب وأحواله ما كان فيه وفي تصويره إماماً لا يلحق له غبار ، ولا عجب فقد شاء الله « لهذه النفس السامية منذ نعومة أظفارها أن تخفق بالحب النبيل العف الطهور ، ذلك الحب الذي نعمت به قلوب الصفوة من العباد الصالحين » [1] فصورته للناس في أجلى مظاهره وأعجبها .

وقبل سبع سنوات (أكتوبر ١٩٥٦) اطلعت في المكتبة الأحمدية بتونس على كتابه المخطوط « التقريب لحد المنطق » فانكشف لي عن مذهب له خاص في أداة اللغة ، وآراء له فيها لم أجدها في مصدر سابق ، ومن يدري لعلنا سنجد في كل أثر (حزمي) يكشف وينشر ، ناحية جديدة لم تك بارزة لأحد من قبل . فلنمض في حديثنا مستضيئين بما

١ – ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة (ص ٩٦ المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٤٠) .

بين أيدينا من آثاره على قلتها النسبية ، مقدمين بكلمة عن عناية الأندلسيين بعلوم اللغة ونشأة ابن حزم اللغوية ، لنقف بعد ذلك متمهلين عند آراء له في اللغة على التعميم وفي اللغة العربية على التخصيص .

عناية الأندلسيين بعلوم اللغة :

للأندلسيين على عهد ابن حزم وقبله ، عناية خاصة باللغة وعلومها وآدابها ، فذلك مع علوم الشريعة أساس شائع للثقافة العامة في ذلك العصر ، فبقدر حظ المرء منها ينبل في عيون الناس ويرتفع عن مستوى (العامية) فما طبيعة هذه الثقافة اللغوية ؟ .

« كان للنحو في الأندلس نشاط ملحوظ مرّ بشبه الخطوات التي سارها في المشرق ، بدأ علماء العربية يدرسون النصوص الأدبية شعراً ونثراً ، دراسة فيها لغة وأدب ونحـــو وصرف وحديث وقرآن ، ثم بدأت الفنون تتمايز مع الزمن ، وكان أول كتاب دخل الأندلس من كتب النحو كتابُ الكسائي ثم كتاب سيبويه ، ثم بدأ الأندلسيون محاولاتهم في التأليف . وعرف من أعلامهم أبو علي القـــالي مؤلف (الأمالي) ، وهي الدروس التي ألقاها هنا في جامع قرطبة ، وكتـــاب (البارع) ، و (فعلت وأفعلت) .

ثم ابن القوطية صاحب كتاب الأفعال ، وكانت أذيع كتب النحو على أيام ابن حزم في المئة الخامسة تفسير الحوفي لكتاب الكسائي، وكتاب الجمل للزجاج ، وتتابع علماء الأندلس على شرح كتب المشرق المشهورة وشرح شواهدها » .[1]

ومن الطريف أن نجد ابن حزم نفسه يشرع منهاجاً للتثقف العام في عصره فيقول في كتابه (التقريب لحد المنطق) وهو آخر ما نشر له حتى الآن في المشرق :

(ولا بد لطالب الحقائق من الاطلاع على القرآن ومعانيه ورواية ألفاظه وأحكامه ، وحديث النبي ﷺ وسيره الجامعة لجميع الفضائل المحمودة في الدنيا والموصلة إلى الآخرة . ولا بد مع ذلك من مطالعة الأخبار القديمة والحديثة ، والإشراف على قسم البلاد ومعرفة الهيئة ، والوقوف على اللغة التي تقرأ الكتب المترجمة بها والتحري في وجوه المستعمل منها ، ولا بد له من مطالعة النحو ، ويكفيه منه ما يصل به إلى اختلاف المعاني بما يقف عليه من اختلاف الحركات في الألفاظ ومواضع الإعراب منها ، وهذا مجموع في كتاب (الجمل) لأبي القاسم

---

١ – «في أصول النحو» : لسعيد الافغاني – ص٢٢٠ مطبعة الجامعة السورية سنة ١٩٥٧ .

عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي الدمشقي . وأما كل ما تقدم فليستكثر منه ما أمكنه)[1] . والظاهر أن العناية بعلوم اللغة وخاصة النحو منها لم تقتصر على الحد الضيق الذي حده ابن حزم ، بل تجاوزته كثيراً ، (ولقد حلا لي يوماً استشارة الأرقام فعمدت إلى « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » للسيوطي ، فأحصيت ما فيه من تراجم ، فاذا هو نحو من (٢٤٥٠) ترجمة لعلماء من جميع الأقطار الإسلامية بين الصين وبحر الظلمات (البحر الأطلسي) ، ووجدت للأندلسيين بينها نحو (٧١٢) ترجمة ، وهذه نسبة عالية جداً أن يبلغ في هذا المصدر علماء الأندلس الصغيرة المساحة قريباً من ثلث علماء العالم الإسلامي كله .

وما أكثر ما يتكرر في تراجمهم وأنسابهم ذكر هذه المدن والقرى : باجه ، شَريش ، بَلنسْية ، جيان ، مالَقه ، سرقُسطة ، دانية ، بيّاسة ، المَريّة ، قلعةُ رباح ، لَبْلة ، لَوْشة ، مَورْور ، إسْتجَّة ، الجزيرة ، شِلْب ، شَذُونة ، وادي الحجارة ، أُشُونة ، بَطلْيوْس ، رنة ... الخ. أما الحواضر الكبرى كقرطبة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة فحدث عن كثرة ورودها ولا حرج .

فإذا ألم بخاطرك ما لكل من هؤلاء العلماء ال (٧١٢) من تواليف ،

---

١ – « التقريب لحد المنطق» ص ١٩٨ .

دار رأسك من كثرتها وعرفت لمَ يتهيب الباحث من إطلاق حكم في تراث لم يطلع منه على عشرة كتب من عدة آلاف) . (١)

بل مالي أبتعد عن ابن حزم نفسه وهو الذي باهى فحول المشرق بمن نبغ في الأندلسيين في الأدب واللغة ، وبدأ ذلك بالتنويه بأهل قرطبة عامة بقوله : (فكان أهل قرطبة من التمكن في علوم القراءات والروايات وحفظ كثير من الفقه والبصر بالنحو والشعر واللغة . . . بمكان رحب الفناء) . (٢)

ثم مضى يعدد في رسالته هذه في (فضل الأندلس) علماء اللغة والأدب وتواليفهم ويقابلها بأمثالها في الشرق ، فتعجب لهذا الاطلاع الواسع على ثروة الأندلس العلمية والتكن منها (٣) . ويمتد به نفسه في

---

١ – من كلمة لي في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد (المجلدان السابع والثامن لسنة ١٩٦٠).

٢ – نفح الطيب ١٥٨/٤ – مصر ١٩٤٩ .

٣ – قال : ومنها في اللغة الكتاب « البارع » الذي ألفه اسماعيل بن القاسم يحتوي على لغة العرب، وكتابه في المقصور والممدود والمهموز لم يؤلف مثله في بابه ، وكتاب الأفعال .. لابن القوطية بزيادات ابن طريف مولى العبيديين فلم يوضع في فنه مثله . وكتاب جمعه .. ابن التياني في اللغة لم يؤلف مثله إختصاراً وإكثاراً وثقة نقل وهو أظن في الحياة بعد .

ومنها كتاب أحمد بن أبان بن سيد في اللغة المعروف بكتاب (العالم) نحو ←

المفاخرة فيقول : (ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي في الشعر لم نباه به إلا جريراً والفرزدق لكونه في عصرهما ، ولو انصف لاستشهد بشعره فهو جار على مذهب الأوائل على طريقة المحدثين ... وإذا صرحنا بذكر محمد بن يحيى الرياحي وأبي عبدالله محمد

← مئة سفر على الأجناس في غاية الإيعاب ، بدأ بالفلك وختم بالذرة ، وكتاب « النوادر » لأبي علي إسماعيل بن القاسم (القالي) وهو مبار لكتاب « الكامل » لابي العباس المبرد . ولعمري لئن كان كتاب أبي العباس أكثر نحواً وخبراً إن كتاب أبي علي لاكثر لغة وشعراً ، وكتاب « الفصوص » لصاعد بن الحسن الربعي ، وهو جار في مضمار الكتابين المذكورين .

ومن الانحاء تفسير الحوفي لكتاب الكسائي ، حسن في معناه ، وكتاب ابن سيد في ذلك المنبوز بـ « العالم والمتعلم » وشرح له لكتاب الاخفش .

ومما ألف في الشعر كتاب عبادة بن ماء السماء في أخبار شعراء الاندلس ، كتاب حسن ، وكتاب « الحدائق » لأبي عمر أحمد بن فرج عارض به كتاب « الزهرة » لابي بكر محمد بن داوود رحمه الله تعالى، إلا ان أبا بكر إنما ادخل مئة باب في كل باب مئة بيت ، وأبو عمر أورد مئتي باب في كل باب مئة بيت ليس منها باب تكرر اسمه لأبي بكر، ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئاً ، وأحسن الاختيار ما شاء وأجاد ، فبلغ الغاية ، وأتى الكتاب فرداً في معناه ، ومنها كتاب « التشبيهات من أشعار أهل الاندلس » جمعه أبو الحسن علي بن محمد ابن أبي الحسن الكاتب وهو حي بعد .

ومما يتعلق ذلك شرح أبي القاسم إبراهيم بن محمد الإفليلي لشعر المتنبي ، وهو حسن جداً ، -- نفح الطيب ١٦٥/٤ .

ابن عاصم لم يقصرا عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرد. ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن محمد بن دراج القسطلي لما تأخر عن شأو بشارٍ وحبيبٍ (أبي تمام) والمتنبي ، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب وأحمد بن عبد الملك بن مروان ، وأغلب بن شعيب ، ومحمد بن شخيص ، وأحمد بن فرج ، وعبد الملك بن سعيد المرادي ، وكل هؤلاء فحل يُهاب جانبه ، وأبعد من كلام ابن حزم هذا في الدلالة على ما نريد قولة ابن سعيد : (والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة ، حتى إنهم في هذا العصر فيه (في النحو) كأصحاب الخليل وسيبويه ، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة ، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه ، وكل عالم في أي علم لا يكون متمكناً من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق التمييز ولا سالم من الازدراء »[1] .

نشأة ابن حزم اللغوية :

معارفنا عن نشأة ابن حزم الثقافية ليست بكثيرة لكنها كافية واليه هو نفسه يعود الفضل في تسجيل أكثرها ، فقد أخبرنا في كتابه الجميل

١ – نفح الطيب ١/٢٠٦ .

(طوق الحمامة) بنشأته الطريقة التي لا يشاركه في مثلها أحد من علماء الإسلام في الشرق والغرب ـ على ما أعلم ـ إذ تربى في حجور العالمات المؤدبات من نساء قصره ، وعلل وفرة خبرته بأحوال النساء وأسرارهن بقوله :

« لأني ربيت في حجورهن ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين تبقل وجهي ، وهن علمنني القرآن وروينني كثيراً من الأشعار ، ودربنني في الخط »[1] .

هذه خطوط ثقافته الأولى ، وأقدر أنه — مع ذلك — قد اتخذ له بعض المعلمين والمؤدبين على عادة الكبراء في قصورهم عرفنا منهم أحمد بن محمد بن عبد الوارث الذي ذكر ابن حزم أنه كان مؤدبه ، والظاهر أنه كان يسمح له في هذه المرحلة مرحلة الصبا أن يحضر بعض حلق الدروس في مساجد قرطبة ، فقد أخبرنا أنه كان يحضر حلقة الشيخ أبي سعيد الفتى الجعفري ، وأنه قرأ عليه معلقة طرفة بن العبد مشروحة في المسجد الجامع بقرطبة ، كما كان يحضر مجلس أستاذه عبد الرحمن بن

١ ـ طوق الحمامة ص ٥٠ (مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٩) .

أبي يزيد المصري في الرصافة [1] ، فنشأ له إلمام في النحو والأدب والقرآن، وأرخى لموهبته الأدبية العنان فصار ينظم الشعر ولما يبلغ الحلم كما حدث عن نفسه [2] ، وكان يغشى مع أبيه مجالس المظفر بن أبي عامر الحافلة بالشعراء والأدباء . ولقد قص علينا قصة مجلس منها في عيد الفطر وما أنشد فيه صاعد في مدح المظفر سنة ٣٩٦هـ وابن حزم حينئذ في الثانية عشرة من عمره ، أما ما قصه عن غشيان مجلس الغناء في قصره وحفظه ما كان يتغنى فيه من مثل شعر العباس بن الأحنف [3] مع ما حف ذلك من ملابساته العاطفية فما أكثر ما يحفل به كتابه « طوق الحمامة » . وعرف عنه بديهته في نظم الشعر بين نساء قصره والقصور التي يغشاها بحكم منصب أبيه وعلاقاته ، حتى صار بعض بنات هؤلاء الكبراء ممن كان يجهله يقترحن عليه النظم في موضوع من موضوعات الحب ثم يغنين بشعره في مجالسهن ، كما فعلت إحدى كرائم المظفر بن أبي عامر [4] .

في هذا الجو تفتح ذهن ابن حزم في صباه للغة والأدب وسارت به ملكته شوطاً بعيداً ، وهذا شرح كلمة « أولاً » الواردة في ترجمة

١ – ص ٧٢ ، ١١٧ .
٢ – ص ١٨ .
٣ – ص ١١٠ .
٤ – طوق الحمامة ١١٤ .

الذهبي له في سير النبلاء حين قال : « مهر أولاً في الأدب والأخبار والشعر » [1] ، وكان كل شيء يبشر بأنه ستكون جهوده وحياته كلها للأدب الخالص لولا أن دخل القدر الصارم ليجعل منه الذائد عن الشريعة وعلومها ، وليحمل لواء المذهب الظاهري فيكون رجله الأوحد ويستقل بعبء توطيده وحمايته ، فلا يلحقه في ذلك لاحق ، كما لم يبلغ شأوه فيه سابق ، وانفرد في تاريخ الشريعة علماً لا يشبهه مشبه ... فماذا صنع القدر حتى اختطفه من الأدب وألقاه في حضن الشريعة ؟

★ ★ ★

علمان من أعلام العلم في تاريخنا العربي سلك كل منهما طريقه إلى هدف أراده ، وقطع نحوه شوطاً ، وإذا بالقدر الحكيم يحوله إلى ما شاءت العناية الإلهية لا ما شاءه هو ، وكان في هذا التحويل الخير كل الخير ، أما السبب الظاهر فأنفة طبع الله عليها كلاً منهما ، أول الرجلين سيبويه وثانيهما ابن حزم .

أراد سيبويه أن يعنى بعلوم الشريعة فجاء « إلى حماد بن سلمة » لكتابة الحديث فاستملى منه قوله ﷺ : « ليس من أصحابي إلا من لو

١ – سير النبلاء (جزء خاص بابن حزم – مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤١) ص ١٧ .

شئت لأخذت عليه ليس أبو الدرداء » هكذا قرأها بالرفع ظاناً أنها اسم ليس والصواب أن يقرأ « ليس أبا الدرداء » فصاح به حماد : «لحنت يا سيبويه ، إنما هذا استثناء » فقال سيبويه : « والله لأطلبن علماً لا يلحنني به أحد[1] » ثم مضى ولزم الخليل وصار أبا النحو العربي إلى يوم القيامة .

أما ابن حزم فقد استمر على ما عرفتم أديباً مترفاً يعنى بنظم الشعر وشهود مجالس الغناء والأدب ، حتى جاوز الخامسة والعشرين وكان يوم الجنازة المشهور إذ كان ينتظره الدرس المرصود لإضرام أنفته وسلوكها به طريقاً لم يشرعه لنفسه ، « شهد جنازة لرجل كبير من إخوان أبيه فدخل المسجد قبل صلاة العصر والحفل فيه فجلس ولم يركع (تحية المسجد) فقال له أستاذه بإشارة أن « قم فصلِّ تحية المسجد» فلم يفهم ، فقال له بعض المجاورين له : « أبلغت هذا السن ولا تعلم أن تحية المسجد واجبة ؟! » وكان قد بلغ حينئذ ستة وعشرين عاماً ، ويتمم ابن حزم القصة بقوله :

« فقمت وركعت وفهمت إذاً إشارة الأستاذإليبذلك، فلما انصرفنا من الصلاة على الجنازة إلى المسجد ، مشاركة للأحياء من أقرباء الميت ،

١ - مغنى اللبيب (مادة ليس) . ونفح الطيب ٢٢٥/٥ .

دخلت المسجد فبادرت بالركوع فقيل لي : « إجلس إجلس ، ليس هذا وقت صلاة » .

فانصرفت عن الميت وقد خزيت ولحقني ما هانت عليّ به نفسي وقلت للاستاذ : (دلني على دار الشيخ الفقيه المشاور أبي عبد الله بن دحون) فدلني فقصدته من ذلك المشهد وأعلمته بما جرى فيه، وسألته الابتداء بقراءة العلم واسترشدته فدلني على كتاب الموطأ لمالك بن أنس رضي الله عنه، فبدأت به عليه قراءة من اليوم التالي لذلك اليوم ، ثم تتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحو ثلاثة أعوام ، وبدأت بالمناظرة)[1] .

والظاهر أن المجالس الرفيعة التي كان يغشاها جبهته غير مرة[2] ،حتى

١ - وتحسر مرة أخرى فقال : « إنني بلغت هذه السن وأنا لا أدري كيف أجبر صلاة من الصلوات » - ارشاد الاريب و (أجبر) عند أهل الأندلس بمعنى (اقضي) عند أهل المشرق .

٢ - حدث عمر بن واجب قال: بينما نحن عند أبي ببلنسية وهو يدرس المذهب (المالكي) إذ بأبي محمد بن حزم يسمعنا ويتعجب ، ثم سأل الحاضرين مسألة من الفقه جووب فيها ، فاعترض في ذلك فقال له بعض الحضّار : « هذا ليس من منتحلاتك» ، فقام وقعد ، ودخل منزله فعكف ، ووكف منه وابل فما كفّ ؛ وما كان بعد أشهر قريبة حتى قصدنا إلى ذلك الموضع فناظر أحسن مناظرة وقال فيها : « أنا أتبع الحق ولا أتقيد بمذهب » اهـ - سير النبلاء للذهبي : نشرتنا لترجمته لابن حزم في مجلة المجمع العلمي العربي (السنة السادسة عشرة) ثم طبعتها على حدة دار الفكر في بيروت .

كان رد الفعل بليغ الأثر في نفسه ، أينع أطيب الثمرات في تحويله إلى استئناف طلب العلم ، ثم شمر هو في هذه الطريق حتى كان لعلوم الشريعة منه إمام أي إمام ، وحتى صار أحق من المتنبي بقول من قال : (مالىء الدنيا وشاغل الناس) لأن الفترة التي شغل المتنبي بها الناس انقضت بزمنها وحدتها إلا قليلاً مما لا خطر له ، بينما لا تزال مجالس العلم وندوات الفقهاء وحملة العلم الشرعي ترتفع فيها المجادلات حول ابن حزم ، لقد ملأ الدنيا حقاً بمذهبه وتآليفه ، وبانقسام الناس فيه ،والفضل كل الفضل للمجتمع الأندلسي النقاد الذي عاش فيه ابن حزم ، فقد جعله يكشف حقيقة مواهبه ويتجه الوجهة التي خلق لها ، فماذا كان أثر اتجاهه (الظاهري) الجديد الذي لازمه حتى الموت في نظرته الى اللغة عامة ؟ ذلك ما أحب أن أقف عنده قليلاً .

★ ★

آراؤه في اللغة عامة :

نشأة اللغة من المسائل القديمة التي تعاور على محاولة حلها الفلاسفة والعلماء منذ القدم ، وطرقها علماء الإسلام فذهب قوم الى أنها مواضعة واصطلاح ونماء تدريجي ، ومن هؤلاء في العصر الذي سبق ابن حزم : ابن جني والفارسي ، وذهب آخرون الى أنها توقيف من الله وتعليم منه

لعباده ، وطاب لابن حزم أن يخوض هذا الميدان باحثاً في المذاهب المختلفة فيه .

عرض رأي الذين قالوا بالوضع والاصطلاح فنقض قولهم بأمرين الأول أن « الاصطلاح يقتضي وقتاً لم يكن موجوداً قبله لأنه من عمل المصطلحين ، وكل عمل لا بد من أن يكون له أول فكيف كان حال المصطلحين على وضع اللغة قبل اصطلاحهم عليها ؟ فهذا من الممتنع المحال ضرورة[1] » .

والأمر الثاني : « أن الاصطلاح على وضع لغة لا يكون ضرورة إلا بكلام متقدم بين المصطلحين على وضعها أو بإشارات قد اتفقوا على فهمها وذلك لا يكون إلا بكلام ضرورة... فقد بطل الاصطلاح على ابتداء الكلام »[1] .

وهناك من قال « إن الكلام فعل الطبيعة » ولم يفند ابن حزم تفصيلات هذا المذهب إلا أنه أبطله ببرهان نظري رآه ضرورياً وذلك « أن الطبيعة لا تفعل إلا فعلاً واحداً لا أفعالاً مختلفة ، وتأليف الكلام فعل اختياري متصرف في وجوه شتى »[1] . وخصص بعض القائلين

---

١ ـ الاحكام لاصول الأحكام لابن حزم ١/٣٠ .

بأن الكلام فعل الطبيعة ، فذهبوا إلى « أن الأماكن أوجبت بالطبع على ساكنيها النطق بكل لغة نطقوا بها » [1] ومعنى ذلك فيما يبدو لي أن طبيعة المكان من سهولة ووعورة ، وحرارة وبرودة ، وجفاف ورطوبة وخصب وجدوبة ... كل ذلك ذو أثر على اللغة السائدة فيه . ولم يرتض ابن حزم هذا المذهب إذ هو — في رأيه — محال ممتنع « لأنه لو كانت اللغات على ما توجبه طبائع الأمكنة ، لما أمكن وجود كل مكان إلا بلغته التي توجبها طبيعته ، وهذا يرى بالعيان بطلانه ، لأن كل مكان قد دخلت فيه لغات شتى على قدر تداخل أهل اللغات ومجاورتهم فبطل ما قالوا » [2] وانتهى من تفنيد هذه الآراء كلها إلى القول بأن اللغات توقيف من الله تعالى وإلهام منه وتعليم [2] » ، وهو قول مريح استراح اليه ابن حزم إذ خلصه من كل ما أورد من اعتراض على غيره .

وإذ وجد حل هذه القضية في لجوئه إلى الغيبيات (الميتافيزيك) حلا له أن يعرض أيضاً لأمرين غيبيين تنازع فيهما المتنازعون ، الأول : ماذا كانت لغة الانسان الأول (آدم) ؟ والثاني : ما لغة أهل الجنة وأهل النار ؟ فأما السؤال الأول فقد سُبق ابن حزم بأربعة أجوبة عليه

١ ـ « الإحكام لأصول الأحكام » لابن حزم ٣٠/١

٢ ـ الإحكام ٣١/١ .

فـ « قال قوم : هي السريانية ، وقال قوم: هي اليونانية، وقال قوم: هي العبرانية ، وقال قوم: هي العربية » [1] ولم يستطع ابن حزم القطع بأحد هذه الأجوبة أو بغيرها إذ كان الأمر من المغيبات وليس في يده نص صحيح ، فأنهى العرض بالخاتمة التقليدية « والله أعلم » [1] .

أما الأمر الثاني لغة أهل الجنة ولغة أهل النار (فلا علم عندنا — يقول ابن حزم — إلا ما جاء في النص والإجماع ولا نص ولا إجماع في ذلك) [2] ، وهذا هو نهجه السليم في كل امر غيبي ، ولقد سخر ابن حزم ممن ناقشه في ذلك وادعى فيه نصاً وهو خبر الله عن اهل الجنة (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) [3] فهذا يعني ان كلامهم بالعربية وهو الذي حكاه الله في القرآن ، فقال له ابن حزم : (إن الله حكى عن اهل النار ايضاً قولهم (وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير) [4] ، فينبغي ان يكون كلام اهل النار عربياً ايضاً . قال الخصم (نعم) فقال له ابن حزم: (فاقض أن موسى وجميع الأنبياء كانت لغتهم العربية لأن كلامهم محكي في القرآن عنهم بالعربية ، فإن قلت هذا

١ ـ الجزء السابق ص ٣١ .

٢ ـ ص ٣٤ .

٣ ـ سورة يونس ١٠/١٠ .

٤ ـ سورة الملك ١٠/٦٧ .

كذبت ربك وكذبك ربك في قوله « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »[1] وبذلك بطل أن يكون هناك نص في هذه الدعوى.)

والظاهر أن المناقشات في تفضيل لغة على لغة كانت دائرة في مجتمع ابن حزم وقبله، وهو بطبعه يأبى كل ما ينصر عصبية بلا دليل : « وقد توهم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات، وهذا لا معنى له لأن وجوه الفضل معروفة وإنما هي بعمل واختصاص، ولا عمل للغة، ولا جاء نص في تفضيل لغة على لغة ... وقد غلط في هذا جالينوس فقال : « إن لغة اليونانيين أفضل اللغات لأن سائر اللغات إنما تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الضفادع » قال ابن حزم : (وهذا جهل شديد لأن كل سامع لغة ليست لغته ولا يفهمها فهي عنده في النصاب الذي ذكر جالينوس ولا فرق)[2]

هذا حكم ابن حزم في اللغات عامة، فما حكمه في لغته العربية المقدسة لغة القرآن والحديث والشريعة ؟ لقد كان حكمه واحداً على الجميع وما كان لمنصف مثله أن يحابي (لقد قال قوم : العربية أفضل اللغات لأنه بها نزل كلام الله تعالى، قال ابن حزم : «وهذا لا معنى له لأن الله أخبرنا أنه لم يرسل رسولاً إلا بلسان قومه، فبكل لغة نزل

١ – سورة ابراهيم ١٤/٤ .
٢ – الإحكام ١/٣٤،٣٥ .

كلام الله ووحيه)[1] ... ثم يشير إلى الغلو والشطط في العصبية الموقع أحياناً فيما ينافي الأخلاق جملة فيقول: (وقد أدى هذا الوسواس العامي اليهود إلى أن استجازوا الكذب والحلف على الباطل بغير العبرانية، وادعوا أن الملائكة الذين يرفعون الأعمال لا يفهمون إلا العبرانية فلا يكتبون عليهم غيرها، وفي هذا من السخف ما ترى !!)[2].

نودع هذا الجانب الغيبي لقضايا تتعلق باللغة عامة وقد ذيلها ابن حزم جميعاً بقوله: (فبطلت هذه الدعاوى الزائفة الهجينة وبالله تعالى التوفيق)[2] نودعها لنستقبل له آراء اعتمدت على علمه ومشاهداته فنعجب بهذه الحصافة التي اهتدت إلى ظواهر أصبحت اليوم من المسلمات في فقه اللغة، وعلم اللغة المقارن، وعلم الاجتماع .

اطلع ابن حزم على السريانية والعبرانية اطلاعه على اللاتينية[3]، وكان مولعاً بتفحص الفروق في اللهجات الدارجة التي يسمعها حيثما حل وارتحل، فهداه تدقيقه إلى أن السريانية والعبرانية والعربية كانت لغة واحدة، وضرب للفروق الأولى بينها مثلاً مما عاين في اللهجات، والظاهر

١ الإحكام ١/٣٤،٣٥ .
٢ » ١/٣٢
٣ ص ١٣، ٥٢، ٥٤ من التقريب لحد المنطق تشير إلى معرفته اللاتينية

أن هذا الذي انتهى إليه من أن اللغات أسر كالبشر لم يرتب فيه قط قال (إن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً أن السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر لا لغة حمير ، لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها فحدث فيها جرش (احتكاك) كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نغمة أهل القيروان ، ومن القيرواني إذا رام نغمة الأندلسي ، ومن الخراساني إذا رام نغمتهما ، ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد يقول إنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة ، وهكذا في كثير من البلاد فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تتبدل لغتها تبديلاً لا يخفى على من تأمله[1] وهذا تصوير للتطوير الدائب لحياة اللغة ليل نهار .

يستمر ابن حزم في الإبراه على أن تطور اللهجات ينتهي بقيام لغة جديدة مع الزمن أصلها كان لهجة ، ويسجل لنا تحريفات شاعت في المتكلمين باللغة العربية من العوام أو من الأجانب المتعربين ، فيلاحظ أن (العامة قد بدلت الألفاظ في اللغة العربية تبديلاً، وهو في البعد عن أصل الكلمة كلغة أخرى ولا فرق ، فنجدهم يقولون في (العنب) : (العينب) ، وفي (السوط) : (أسطوط) وفي (ثلاثة دنانير) :

١ – الإحكام ٣٢،٣١/١ .

(ثلثدّا) . وإذا تعرب البربري فأراد أن يقول (الشجرة) قال : (السجرة) ، وإذا تعرب الجليقي أبدل من العين والحاء هاءً فيقول (مهمدا) إذا أراد أن يقول (محمداً) . وينتهي من هذه الملاحظ ليقرر أن من تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الامم ، وأنها لغة واحدة في الاصل »[1] . هذا ولست أدري دليله في دعواه التي يختم بها ملاحظته السابقة : « وإذ قد تيقنا ذلك فالسريانية أصل العربية والعبرانية معاً » . لمَ لم تكن العربية هي أصل السريانية عنده ؟ سؤال لم يتحفنا هو بجوابه .

ولا أنتقل بكم بعد هذا إلى نظراته في اللغة العربية خاصة قبل أن أشير إلى أنه عني كل العناية بتسجيل أثر العامل السياسي للغة ، عنايته بملاحظة العوامل الاجتماعية ، فقد انتبه إلى أنه (يقيد لغةَ الأمة وعلومها قوةُ دولتها ونشاط أهلها وفراغهم . وأما من تلفت دولتهم ، وغلب عليهم عدوهم ، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم فمضمون منهم موت الخواطر ، وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم ونسيان

١ – الإحكام ٣٢/١ – جليقية : بلدة في أقصى الشمال الغربي من أسبانيا تقع على المحيط – معجم البلدان .

أنسابهم وأخبارهم وبيود علمهم .) [1]

وإذا ذكرتم سبق ابن حزم لابن خلدون بنحو (٣٥٠) سنة ، وأن ابن خلدون قرأ مصنفات ابن حزم وكانت رائجة في المغرب منذ عهد الموحدين ، وأنه يعزو إليها أحيانا ، رأيتم أن الفضل الذي ينسب لابن خلدون في تأسيسه علم الاجتماع يجب رد شيء منه ولو ضئيلاً إلى ابن حزم .

وله فيما نسميه الآن (اللغة الكاملة) رأي سديد سبق إليه ، ويتمنى تحقيقه اليوم أصحاب كل لغة للغتهم ، فبعد أن قرر أن (اللغة كلها حقيقة وذات أوضاع صحاح ، وعبارات عن المعاني [2]) قال (ولو كانت اللغة أوسع حتى يكون لكل معنى في العالم اسم مختص به لكان أبلغ للفهم وأجلى للشك وأقرب للبيان)[2] ليت ذلك كان فحقق أمنية عالمنا القرطبي قبل تسعمائة عام وأمنيات علماء اللغة إلى اليوم .

وبذلك يبدو ابن حزم ــ حين يترك الأمر لعلمه وملكاته لا

---

١ ــ الإحكام ٣٢/١

٢ ــ مراتب العلوم (رسائل ابن حزم: المجموعة الأولى نشر الدكتور إحسان عباس) ص ٦٥ .

لظاهريته ــ ففيها من فقهاء علم اللغة، صادق الحس، دقيق الملاحظة، حسن الاستنباط، صحيح الأحكام ، فيه استعداد لشمول النظرة إذا أراد.

هذه بعض جولات ابن حزم في اللغة عامة ، فما آراؤه وجولاته في ميدان اللغة العربية وعلومها خاصة ، على حالها التي كانت عليه في عصره ؟.

ذلك موضوع حديث قادم إن شاء الله .

(٢)

آراؤه في اللغة العربية وعلومها في عصره :

لم يخالف أحد من علماء الإسلام على تباين مذاهبهم أن الفقه يستمد أحكامه ــ أول ما يستمد ــ من نصوص القرآن والحديث الصحيح ، وعلى هذا تكون اللغة بمفرداتها أول ما يستمد، وتراكيبها أول ما يطالب الفقيه بإتقانه ، حتى يصبح ذا ملكة قوية ، تساعده على إحكام الفهم وأمن الخطأ . ثم أضافت أكثر المذاهب الإجماع إلى هذين الاصلين وزاد بعضها القياس .

وكان الوقوف عند ظاهر النصوص وعدم الأخذ بالقياس ، شأن أكثر أصحاب الحديث منذ العصر الأول ، ثم أطلق اسم (الظاهرية) في القرن الثالث ، على أصحاب داوود بن علي الأصفهاني (٢٧٠ هـ) ولم يكونوا في المشرق كثرة ، وهم في المغرب أقل ، يكاد لا يلتفت إليهم ، ولم يدعُ أحد منهم إلى مذهبه ، حتى جاء ابن حزم فملأ الاندلس بكتبه ومذهبه وشغل به الحكام والعلماء والناس .

وكان دستوره الذي لم يَحُل عنه ما عبر عنه بقوله :

لا أنثني نحو آراء يقال بها   في الدين بل حسبي القرآن والسنن

طبيعة المذهب الظاهري تقضي أن يولي اللغة ومدلولات الألفاظ المقام الاول من العناية ، لأن بناء المذهب كان على هذه الدلالات فحسب ، وهو رد فعل للشطط الذي ارتكبه جماعة تهاونوا ببعض النصوص ، إذا ساقهم القياس إلى خلافها تأولوها وأخرجوها عما وضعت له ، فقام المذهب الظاهري ليرد إلى كل حرف من هذه النصوص اعتباره الكامل ، ويقف عندها لا يتعداها يمنة ولا يسرة. ويتضح ذلك في صنيع ابن حزم بما حمَّل الفقهاءُ مثلاً كلمتي (أف) و (عبرة) من معانٍ أحكامها مسلمة عند الجميع ، لكن تحميل الكلمتين لها هي موضع النقد بل التهكم عند ابن حزم .

قال الله تعالى في بيان حق الوالدين : و لا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً [١] » فقال القياسيون [٢] : (فما عدا الأف مقيس على الأف) فانبرى لهم ابن حزم يقول :

(فما نهم أحد قط في لغة العرب ولا العقل أن قول (أفٍّ) يعبر

١ ـ سورة الإسراء ١٧ الآية ٢٣ .

٢ ـ ملخص إبطال القياس ... لابن حزم ص ٢٣ . رسالة له نشرناها عن مخطوطة تونس سنة ١٩٦٠ ـ مطبعة جامعة دمشق .

به عن القتال والضرب ، ولو لم يأت إلا هذه الآية ما حرم لها إلا قول (أف) فقط ، ولا خلاف في أن شاهدين لو استشهدهما مضروب على ضربه فقالا : (نشهد أنه قال له : أف) لكانا بذلك شاهدي زور . . . لكن اقتضى سياق الآيتين كل بر لهما قلّ أو كثر ، وكل رفق ، واجتناب كل إساءة ، وبذلك حرم الضرب وغيره ، لا بالنهي عن (أف) ولوكان قول (أف) مغنياً لما كان حاجة إلى ما بعده)

ولا يخلي ابن حزم نقده للفهم الذي فهموه من كلمة (عبرة) من تهكم ظاهر فالكلمة وردت في هذه الآية (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعبَ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار)[1] فاستدل القياسيون على القياس بقوله (فاعتبروا) ولم ينس ابن حزم في رده أن يلفت نظرهم إلى السياق الذي وردت فيه الكلمة وأنهم حملوها ما لا تحمل البتة قال :

(فأما قوله تعالى[2] (فاعتبروا يا أولي الأبصار) فلم يفهم أحد

١ ـ سورة الحشر ٥٩ الآية ٢ .
٢ ـ ملخص إبطال القياس . . ص ٢٧ .

قط أن معنى (اعتبروا) : (قيسوا) ، ولا أن معنى (اعتبروا) : (احكموا للحديد والبلوط بحكم البُر في الزكاة) ، والآية جاءت بعقب قوله « يخربون بيوتهم . . . » فلو كان معناه (قيسوا) لكان أمراً بأن نخرب بيوتنا كما أخربوا بيوتهم . ومعنى الاعتبار في اللغة والقرآن التعجب » .

والأمثلة مستفيضة في كتبه وهي أكثر من أن تحصى ، وحسبنا منها ما تقدم دليلاً على مذهبه الظاهري في اللغة . والرجل اتخذ الظاهرية مذهباً فلسف به حياته وسلوكه وفقهه وعقيدته ، وحتى غزله ، أليس القائل :

وذي عذلٍ فيمن سباني حسنه	يطيل ملامي في الهوى ويقول:
« أمن أجل وجه لاح لم تر غيره	ولم تدر كيف الجسم: أنت عليل؟
فقلت له أسرفت في اللوم فاتئد	فعندي ردٌّ لو أشاء طويل
ألم تر أني ظاهري وأنني	على ما أرى حتى يقوم دليل[1]

ومن لم يستطع التخلي عن ظاهريته حتى في غزله، كان في اللغة ومدلولاتها ظاهرياً محضاً وكان من المنطقي الطبيعي أن نجد في كتبه ما ينسجم هو

١ – نفح الطيب وإرشاد الاريب .

وسلوكه العملي فنقرأ في مذهبه اللغوي الظاهري هذه الكلية في كتابه (الفصل) : « وحمل الكلام على ظاهره الذي وضع له في اللغة فرض لا يجوز تعديه إلا بنص أو إجماع ، لأن من فعل غير ذلك أفسد الحقائق كلها والشرائع كلها والمعقول كله . »[1] كما نقرأ في كتابه (التقريب لحد المنطق) :

« ولا سبيل إلى نقل مقتضى اللفظ عن موضعه الذي رتب للعبارة عنه : وإلا ركبت الباطل وتركت الحق ، وجميع الدلائل تبطل نقل اللفظ عن موضعه في اللغة ، ولا دليل يصححه أصلاً »[2] .

★ ★ ★

كان من المتوقع أن نجد لابن حزم وقد تضلع من علوم العربية ورسخت ملكته فيها مذهباً يساير المتقدمين والمتأخرين من العرب وسائر المسلمين وكثير من الأجانب ، في الاشادة بتقديسها وتفضيلها على غيرها ، وقد أعجزنا ذلك ، بل الاغرب أنا وجدناه لا يرى للغة فضلاً على لغة ، وقد عرفت مما سبق آنفاً أن تلك هي نظرته الشاملة ، وحتى من الوجهة الدينية لم ير للعربية على غيرها فضلا . ويرجح المطلعون أنه

١ – ٣/٣ .
٢ – ص ١٥٥ .

كان يعرف الاعجمية (الاسبانية) ، فلما اطلعت على مخطوطة التقريب لحد المنطق في تونس (وقد طبعت أخيراً في بيروت) ، أيقنت أنه يتقن اللاتينية التي طالع فيها تآليف اليونانيين في الفلسفة والمنطق ، كما عرف السريانية والعبرانية ، وإذاً فقد صدر في حكمه بنفي التفاضل بين اللغات عن اطلاع وعلم ، ونحن وإن لم نشاركه في رأيه نعترف أنا لا نملك من الأدوات ما يسوغ لنا البت في هذا الأمر ، والذي نريد تقريره هنا ، أنه كان يصدر في أحكامه اللغوية عن حياد متحرر لا أثر للعصبية فيه ، فقد كان في محاولته الناجحة في وضع مصطلحات المنطق حين أراد تقريبه إلى قراء العربية ، يقف كثيراً ويجتهد حتى ينتقي المصطلح الموفق الذي يفهم المراد منه بمجرد ذكره، وإنا لنحيي إنصافه وحريته حين يقر بقصور المصطلح الذي وضعه عن المصطلح اللاتيني، ولا يفعل هذا إلا متمكن في اللغتين وفي العلم ذاته ، ودان نفسه بالتحرر من كل اعتبار إلا الحق.

وضع اسم الاستفهام (ما) ليُسأل به عن الجنس والنوع، ووضع الأداة (أي) للسؤال عن الفصل في المتساويات جنساً ونوعاً، ثم أحس بفضل المصطلح اللاتيني في لغته فسجل أسفه بعد بذل الجهد بقوله :[1]

« واعلم أن اللغة العربية لم تمكن العبارة فيها بأكثر مما ترى ، على

١ – التقريب لحد المنطق ص ١٣ .

أن السؤال بـ (ما) والسؤال بـ (أي) قد يستويان في اللغة العربية ، وينوب كل واحد من هذين اللفظين عن صاحبه ويقعان بمعنى واحد ، ومن أحكم اللغة اللطينية عرف الفرق بين المعنيين اللذين قصدنا في الاستفهام ، فإن فيها للاستفهام عن العام لفظاً غير لفظ الاستفهام عن أبعاض ذلك العام ، ببيان لا يختل على صاحبه أصلاً . »

وقال نحواً من ذلك إزاء الكمية والكيفية « وهذه عبارة لم تعط اللغة العربية غيرها وقد تشاركها فيها الكيفية ، وهذا يستبين في اللغة اللطينية عندنا استبانة ظاهرة لا تختل ، وهي لفظة فيها تختص بها الكمية دون سائر المقولات العشر ، وللكيفية أيضاً في اللطينية لفظ يختص بها اختصاصاً لا إشكال فيه دون سائر المقولات، لا يوجد لها ترجمة مطابقة في اللغة العربية »[1] ولا يحتشم من إعادة هذا المعنى في موضع آخر من الكتاب نفسه :

« وقد ذكرنا قبلُ أن هذه عبارة لم نقدر في اللغة العربية على أبين منها ، ولهذا المعنى في اللطينية لفظة لائحة البيان غير مشتركة، لم توجدها في العربية ترجمة مطابقة لها فصير إلى أقرب ما وجد رافعاً للإشكال »[2] .

١ – ص ٥٢ .

٢ – ص ٥٤ .

وبهذا وقفت على شمول نظرته حين يتكلم في اللغة بوجه عام وأيقنت بأنه يحكم فيما يحسن ويتقن ، ولما عرض للفظ الذي ليس فيه دلالة على الكلية ولا على الجزئية الذي سماه (المهمل) نبه على الفارق بين اللغات في ذلك فقال :

« وذكر الأوائل أن المهملات لا تنتج .. وهذا في اللغة العربية لا يصح ،وإنما حكى القوم عن لغتهم ، لكننا نقول إن المهملة ما لم يبين الناطق بها أنه يريد بها بعض ما يعطي اسمها ، أو لم يمنع من العموم بها مانع ضرورة فإنها كالمحصورة الكلية ولا فرق »[1] .

سقت كل هذا لأنفي عن عالمنا ابن حزم ضيق الأفق وأنه لا يطلق حكمه على الشيء ولم ير منه إلا جهة قاصرة ، وحين يعالج الموضوع العلمي يعالجه بعيداً كل البعد عن الاعتبارات الأخرى مهما تكن إذ لا يرى فيه إلا ميداناً الناسُ فيه من جميع الملل والنحل ومن كل العصور والدهور أسرة واحدة ، وما خلفوا من تراث علمي وحضاري ملك لكل البشر لا يختص فيه وطن ولا جيل . ومن هنا طارت عنده حدود الزمان والمكان واندثرت عوامل العصبية والعواطف والأهواء .

اللغة في مذهب ابن حزم أداة توضيح وتسهيل تيسر على البشر بلوغ

١ – ص ١٠٧ .

أغراضهم ، أما في العلم فاتخاذها وسيلة إيضاح وتقريب أوجب وأوكد ، والعلوم النظرية ألى هذا أحوج ، وأشدها حاجة إليه المنطق الذي هو في رأيه « علم مظلوم ونصر المظلوم فرض وأجر » وإذا كان رثاء ابن حزم للمنطق نتيجة الحملات العنيفة عليه من خصومه فإن لنا أن نضيف إلى ظلم الخصوم ظلم الأولياء ، الذين أساؤوا إليه بأدائه إلى الناس على غير اللغة السهلة الواضحة ، وهذه معركة آلى على نفسه أن يأخذ فيها بناصر هذا العلم المظلوم ، داعياً إلى مذهبه اللغوي الذي حث عليه مراراً وطبقه فعلاً في جميع كتبه على اختلاف فنونها . ويتلخص هذا المذهب كما أسلفت بأداء الأغراض العلمية بالألفاظ العامية الفاشية التي يفهمها عامة الناس ، وتجنب كل مستغلق معقد عليهم . وقد عزا كثيراً من الأذى اللاحق بعلم المنطق إلى الأداء اللغوي السيء حتى صار هذا الأداء تقليداً متبعاً وشريعة مطاعة ، فحمل معول الهدم بيد، وآلات البناء بيد:

« فلما نظرنا في ذلك وجدنا بعض الآفات الداعية إلى البلايا التي ذكرنا تعقيد الترجمة فيها وإيرادها بألفاظ غير عامية ولا فاشية الاستعمال، وليس كل فهم تصلح له كل عبارة ، فتقربنا إلى الله عز وجل ، بأن نورد معاني هذه بألفاظ سهلة سبطة ، يستوي إن شاء الله في فهمها العامي والخاصي ، والعالم والجاهل حسب إدراكنا . . . وكان السبب الذي حدا

من سلف من المترجمين إلى إغماض الألفاظ وتوعيرها وتخشين المسلك نحوها الشح منها بالعلم والضن به . . . إن الحظ لمن آثر العلم وعرف فضله أن يسهله جهده ويقربه بقدر طاقته ، ويخففه ما أمكن ، بل لو أمكنه أن يهتف به على قوارع طرق المارة ، ويدعو إليه في شوارع السابلة ، وينادي عليه في مجامع السيارة ، بل لو تيسر له أن يهب المال لطلابه ، ويجزى الأجور لمقتنيه ، ويعظم الأجعال عليه للباحثين عنه . . . لكان ذلك حظاً جزيلا وعملا جيداً وسعياً مشكوراً »[1] .

وهذا بالقياس إلى ما كانت عليه كتب المنطق ومعلموها ثورة تدك التقاليد دكاً ، ودعم دعوته هذه بالعمل فشرح صنيعه في التقريب لقارىء كتابه في المنطق ، العلم :

« الذي وعّرته الأوائل وعبرت عنه بحروف الهجاء ضنانة به ، واحتسبنا الأجر في إبدائه وتسهيله وتقريبه على كل من نظر فيه . . . ولم نقنع إلا بأن جعلنا جميع الأنحاء من لفظ واحد في الإيجاب ولفظ واحد في النفي ، ليلوح رجوع بعضها إلى بعض ، ومناسبة بعضها بعضاً ووجوه العمل في أخذ البرهان بها ، فقربنا من ذلك بعيداً ، وبينا مشكلا ، وأوضحنا عويصاً ، وسهلنا وعراً ، وذللنا صعباً ما نعلم أحداً سمح بذلك ولا أتعب ذهنه فيه قبلنا »[1] .

١ — التقريب لحد المنطق ص ٨ ، ١١٦ .

وها نحن أولاء نصل إلى نقد القدماء كتاب المنطق لابن حزم ، النقد الذي نجده عند كل من ترجم له ،ولا يكاد يخرج عن قول صاعد :

« استعمل فيه أمثلة فقهية وجوامع شرعية وخالف (أرسطاطاليس) واضع هذا العلم في بعض أصوله ، مخالفة من لم يفهم غرضه ولا ارتاض في كتابه ، فكتابه من أجل هذا كثير الغلط بيِّن السقط »[1] .

ولم يذكروا مسوغات هذا الحكم القاسي ولا تلك الأغلاط التي زعموها حتى يحكم القارىء ، وإذا كانوا أنكروا عدوله عن اصطلاحات المناطقة العسرة اليابسة إلى اللغة المألوفة الواضحة ، ولجوءه إلى انتزاع الأمثال من واقع الحياة المعروف للعامي والخاصي بدلاً من التمثيل بالحروف ، فإنا لنجد في هذا مزية ابن حزم الكبيرة وإبداعه المفيد ، فمسائل العلم لا يتعبد فيها بألفاظ الأوائل والانجرار على أذيالهم ، وإنما يلتزم فيها السهولة والإيضاح ، وهذا هو التجديد الذي فاجأ به ابن حزم عصرييه المقلدين ، فلم يعطل ما يقضي العقل بفائدته العامة للناس ليحافظ على الرموز والحروف التي وضعها أرسطو باليونانية فيقسر القارىء العربي على ما لا يفهم إلا بالصعوبة الشاقة، هذا تحجير على العلم لا نشرٌ له. وهناك تقليد يعرفه المشتغلون بالتراث العربي عن بعض النحاة، يعقدون عبارات كتبهم حتى يضطر الناس إلى قصدهم وقراءتها عليهم ، فيكسبوا بذلك ربحاً مادياً

[1] ـ طبقات الأمم ص ١١٨ .

ومعنوياً ، نزعة لا يمكن أن يقبلها بحال متحرر مثل ابن حزم وقف نفسه على إعلاء كلمة العقل والحرية ونفع الناس . لقد لاموه على ما يستوجب منا أعظم الحمد ، فلما نشر كتاب (التقريب) وقرأناه ألقينا من أذهاننا ما علق بها من هذا النقد السطحي التقليدي ، وعاينا الحقيقة سافرة وضاءة جميلة .



تكاد الكلمة تجمع على أن أجمل لغة كتبت بها الشريعة وضوحاً وإشراقاً هي لغة ابن حزم ، يتضح هذا لمن قرأ مسائل الأصول في كتابه « الإحكام » وقرأها في كتب غيره ، فإن طالب العلم لا يستطيع قراءة كتاب في الأصول إلا على أستاذ مختص يشرح له تراكيبه وألفاظه ومسائله المعقدة ، أما قارىء « إحكام » ابن حزم فلا يحس أنه يطالع مسائل غريبة عنه أو علماً يحتاج في فهمه إلى أستاذ ، وكتابه (المحلى) على أنه من أعظم كتب الشريعة على الإطلاق يطالعه طالب العلم بسهولة ولذة ، ومتعة بما أفاض عليه مؤلفه من حيوية وحركة في أسلوبه الجدلي ولغته الجميلة المألوفة ، وزاد من يسر كتبه على القارئين تعبيره عن المصطلحات بالألفاظ العامة التي يألفها كل إنسان على ما مر بك من صنيعه بفن المنطق حتى جعله معروضاً على الصبيان في الطرق ، وهذه مثالية في نشر العلم

وتسهيله ، وهو ذو مذهب خاص في وضع المصطلحات واضحة مفهومة الدلالة لكل مطلع ، وحين لا يعجبه مصطلح ينقده ويقترح غيره : عرض لإطلاق المتكلمين لفظة « القديم » على الله فأباها معللا ذلك بقوله :

« وذكروا شيئاً سموه (القُدْمة) وهذه اللفظة استعملها أهل اللغة العربية فيما تقدم زمانه زمان غيره كقولهم (الشيخ أقدم من الغلام ، ودولة بني أمية أقدم من دولة بني العباس) وما أشبه ذلك ، أما أهل الكلام فإنهم استعملوها في الخبر عن المخلوقات والخالق تعالى ، فسموا الواحد الأول عز وجل قديماً ، ونحن نمنع من ذلك ونأباه ، ولا نزيل القديم والقدم عن موضعهما في اللغة العربية ولا نصف به الخالق عز وجل البتة ، وقد قال عز وجل : « كالعُرجون القديم »[1] يريد البالي الذي مرت عليه أزمنة مخلقة له بتطاولها ، ونضع مكان هذه العبارة لفظة (الأول) والإخبار بأنه تعالى لم يزل ، وأن جميع ما دونه ــ وهي كل المخلوقات ــ لم تكن ثم كانت ، وأن كل شيء سواه تعالى محدَث مخلوق ، وهو خالق أول واحد حق لا إله إلا هو »[2] .

١ ــ سورة يس : ٣٦ الآية ٣٩ شبه القمر في آخر الشهر بعود شماريخ النخل القديم حين يصفر ويتقوس .

٢ ــ التقريب لحد المنطق ٧٤ ، ٧٥ .

أبى ابن حزم لفظة القديم للاشتراك في معانيها فهي غير دالة على ما يراد منها في صفة الله ، فوضع للمراد لفظة (الأول) وهذا مثال واضح من تدقيقه اللغوي .

وفي جولاته في ميادين الشريعة ، يبتكر أحياناً لتسهيل البحث وتوضيح المراد تقسيماً أو تبويباً لم يسبق اليه ، ويحاول إيجاد المصطلح الملائم لهذه الأنواع فيرزق التوفيق ، قسم الإجماع إلى (لازم) وهو ما اتفق جميع العلماء على وجوبه أو على تحريمه أو على أنه مباح لا حرام ولا واجب ، وإلى (إجماع جازىء) وهو ما اتفق جميع العلماء على أن من فعله أو اجتنبه فقد أدى ما عليه من فعل أو اجتناب أو لم يأثم ، قال : « فسمينا هذا القسم الإجماع الجازىء ، عبارة اشتققناها لكل صنف من صفته الخاصة به ليقرب بها التفاهم بين المعلم والمتعلم والمتناظرين على سبيل طلب الحقيقة »[1] .

مذهبه في هذا واضح لا يرى المصطلح إلا وسيلة للتفاهم والتقريب فلا ينبغي أن يختار له من الألفاظ إلا ما يحقق هذا المطلب .

وسنسأل بعد أن عرفنا آراء ابن حزم في اللغة عامة وفي الترجمة

١ ــ مراتب الإجماع ص ٨ .

وفي وضع المصطلح ، وهي آراء تحررت من أتباع العادات المألوفة والتقاليد المتبعة ، وتأبّت على كل قيد ، سنسأل : ما حكمه على علوم اللغة العربية وأساليبها المرسومة في عصره؟ ما رأيه في النحو وكتبه ومؤلفيه؟ هل انجر على طرق من قبله أم درس واجتهد ثم خرج على الناس بخطة رآها هي الأجدى ؟ إن آراءه — فيما أحسب — لا تعجب كثيراً من عصريينا كما لم تعجب أكثر عصرييه ومن بعدهم ، إنه لا يرى كل هذا الاشتغال بالنحو ويكفي منه ما أبلغك الهدف ، وما سوى ذلك فلغو من القول وإضاعة للوقت ، ولم يرسل القول إرسالاً فعل الكسالى يسوغون به تقاعسهم عن العلم أو عجزهم ، لا ، انه درسه في مطولاته ومختصراته دراسة قاض لم يترك بينة في الدعوى الا فحصها ثم انتهى الى ما قدمت لك ، قال :

« أقل ما يجزىء من النحو كتاب (الواضح) للزبيدي أو ما نحا نحوه كـ (الموجز) لابن السراج وما أشبه هذه الأوضاع الخفيفة[1] ، وأما التعمق في علم النحو ففضول لا منفعة بها ، بل هي مشغلة عن الأوكد ، ومقطعة دون الأوجب والأهم ، وإنما هي تكاذيب ! ، فما وجه الشغل بما هذه صفته ؟ وأما الغرض من هذا العلم فهي المخاطبة وما

١ — في المطبوع : (الحقيقة) ولعل الصحيح ما أثبت .

بالمرء حاجة اليه في قراءة الكتب المجموعة في العلوم فقط . فمن يزيد في هذا العلم إلى إحكام كتاب سيبويه فحسن إلا أن الاشتغال بغير هذا أولى وأفضل ، لأنه لا منفعة للتزيد على هذا المقدار الذي ذكرنا إلا لمن أراد أن يجعله معاشاً ، فهذا وجه فاضل لأنه باب من العلم على كل حال »[1] .

ومثل لما لا يحتاج اليه من هذا الفن بالمسائل الطوال « التي أدخلها أبو العباس المبرد في صدر كتابه (المقتضب) في النحو »[2] وعلل حكمه بأن هذه المسائل « لا ترد على أحد أبداً في كتاب ولا في كلام »[2] .

أما علل النحو فقد اشتد في الحكم عليها كل الشدة ، فإنها - في رأيه - « كلها فاسدة لا يرجع منها شيء إلى الحقيقة البتة . وإنما الحق من ذلك أن هذا سمع من أهل اللغة الذين يرجع اليهم في ضبطها ونقلها ، وما عدا هذا فهو — مع أنه تحكم فاسد متناقض — فهو أيضاً كذب، لأن قولهم كان الأصل كذا فاستثقل فنقل إلى كذا . . . شيء يعلم كل ذي حس أنه

١ — مراتب العلوم (ضمن رسائل ابن حزم : المجموعة الأولى) ص ٦٤ .
٢ — التقريب لحد المنطق ص ١٠٤ .

كذب لم يكن قط ، ولا كانت العرب عليه مدة ثم انتقلت إلى ما سمع منها بعد ذلك »[1] .

لقد فتح ابن حزم على نفسه جبهة ثانية — كما يقولون — تلقى فيها حملات مخالفيه من أنصار ذلك النحو ، ثم صاروا يتربصون به كل حكم نحوي يرونه خطأ ليشنعوا عليه ، كأن حملات الفقهاء من أنصار المذاهب حتى يومنا هذا لا تكفيه ، لكن النحاة — على كل حال — أخف عنفاً وأفل سلاحاً ، فليس في أيديهم تكفير ولا تبديع ولا إخراج من سنة أو جماعة . . وحسبنا ذكر مثال واحد مما نقد به النحـــاة ابن حزم في جزئية من جزئيات النحو ، وذلك رأيه في عود الضمير على المضاف اليه وهو ما أباه منتقدوه ، فقد جاء في كتابه (المحلّى) :

(وأما شعر الخنزير وعظمه فحرام كله ، لا يحل أن يتملك ولا أن ينتفع بشيء منه لأن الله تعالى قال : (أو لحمَ خنزير فإنه رجس[2]) والضمير راجع إلى أقرب مذكور ، فالخنزير كله رجس »[3] .

١ — المصدر السابق ص ١٦٨ ، ٢٠٢ وأراد ابن مضاء المتوفى بعد (١٣٦) سنة أن يزيد على ما قال ابن حزم فلم يصنع شيئاً وخلط ، بل قصر كثيراً حتى عن الصواب الذي في كلام ابن حزم هذا الموجز الواضح .

٢ — سورة الأنعام ١٤٥/٦ .

٣ — المحلى ١٢٤/١ .

هذا مذهب ابن حزم ، ومذهب غيره أن الرجس بهذا النص هو لحمه فقط ، وانتشرت المسألة من كتب الفقه إلى كتب النحو فنقد أبو حيان في تفسيره رأي ابن حزم هذا ونقله عنه جماعة ، وقد رأيت في مخطوط نادر طريف لجمال الدين الأسنوي (— ٧٧٢ هـ) من أهل المئة الثامنة للهجرة اسمه « الكواكب الدرية في تنزيل الفروع الفقهية على القواعد النحوية » عرضاً لهذا الرأي كما يلي[1] :

« مسألة — الضمير إذا سبقه مضاف ومضاف اليه وأمكن عوده على كل منهما على انفراده كقولك : (مررت بغلام زيد فأكرمته) فإنه يعود على المضاف دون المضاف اليه . لأن المضاف هو المحدث عنه والمضاف اليه وقع ذكره بطريق التبع وهو تعريف المضاف أو تخصيصه ، كذا ذكره أبو حيان في تفسيره وكتبه النحوية ، وأبطل به استدلال ابن حزم ومن نحا نحوه ... على نجاسة الخنزير بقوله تعالى: «أو لحمَ خنزير فإنه رجس» حيث زعموا أن الضمير في قوله تعالى فإنه يعود إلى الخنزير ، وعللوه بأنه أقرب مذكور »[2] من هذا المثال نلاحظ ان نقد النحاة لابن حزم

١ — الورقة ٢/٢ من مخطوطة دار الكتب المصرية ذات الرقم (٥١٤٤هـ نحو)

٢ — وتتابع نقد رأي ابن حزم ، قال الدماميني « ينبغـــي أن يكون المراد بالأقرب غير المضاف اليه ، أما اذا كان الأقرب مضافاً اليه فلا يكون الضمير له الا بدليل » — حاشية الصبان على الأشموني ١٤٦/١ — مطبعة بولاق سنة ١٢٨٠هـ .

نقد موضوعي خال من الحدة ، مع أنه حمل على نحوهم وعلله وكتبه ونعتها بالفساد والكذب كما مر بك .

هذا ومع زهد ابن حزم في كثير من النحو لا يسعنا إلا أن نعجب من استحسانه إحكام كتاب سيبويه ، ويحق لنا أن نتساءل : من أحكم كتاب سيبويه فماذا بقي عليه ليستزيد ؟! على كل قد خرجنا من سوء رأي ابن حزم في غير الضروري من النحو بحكم له في الاختصاص نستخرجه من بين السطور ، حين أنصف المختصين فيه لأنه — كما يفهم من كلامه — لا ينبغي أن يخلو مجتمع من اختصاص ما مهما[1] تقل الحاجة اليه في رأي بعض الناس .

فإذا انتقلنا إلى رأيه في علم اللغة حمدنا الله تعالى إذ كان رأيه فيه جميلاً ، فهو ضروري ولا يكتفي منه إلا بالقدر الصالح الكثير الذي نتمنى للمشتغلين في اللغة اليوم أن يحكموا بعضه قال : « والذي يجزىء من علم اللغة كتابان : أحدهما (الغريب المصنف) لأبي عبيد ، والثاني (مختصر العين) للزبيدي ليقف على المستعمل بهما ، ويكون ما عدا المستعمل منهما عُدة لحاجة إن عنت يوماً ما في لفظ مستغلق فيما يقرأ من

١ — كلمته السابقة في ص ٣١ نقلاً عن مراتب العلوم .

الكتب ، فإن أوغل في علوم اللغة حتى يحكم (خلق الإنسان) لثابت و (الفروق) له و (المذكر والمؤنث) لابن الأنباري و (الممدود والمقصور والمهموز) لأبي علي القالي و (النبات) لأبي حنيفه أحمد بن داوود الدينوري وما أشبه ذلك فحسن بخلاف ما قلنا في علل النحو »[1] وأوصى إضافة إلى ذلك بشيء من الشعر على أن يكون في موضوع الحكم والخير ، ومثل في وصيته بشعراء الرسول حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله ابن أبي رواحة ، وشعر صالح بن عبد القدوس . ووصف أشعارهم بأنها « نعم العون على تنبيه النفس »[1] .

أما البلاغة فلم نعثر على شيء من تصانيفه فيها إلا أن مجمل آرائه فيها حوتها صفحة من كتابه في المنطق ، عرض في أولها لقدامة بن جعفر وحكم لكتابه بالإحكام كما حكم لصديقه ابن شُهيد بالتمكن فيها والقوة . ولم يفته ملاحظة أن البلاغة « قد تختلف في اللغات على قدر ما يستحسن أهل كل لغة من مواقع ألفاظها على المعاني التي تتفق في كل لغة[2] » .

وهو يرى أن البلاغة تتحقق بتوفر شرطين : الوضوح ، والبراءة

١ — مراتب العلوم (ضمن رسائل ابن حزم) ص ٦٥ ، ٦٤ ، وأنظر ما مر بك في ص ٣١ .
٢ — التقريب لحد المنطق ص ٢٠٤ .

من الاخلال والتطويل ، قال : « البلاغة ما فهمه العامي كفهم الخاصي.. وملاك ذلك الاختصار لمن يفهم ، والشرح لمن لا يفهم[1] » و « كان بلفظ يتنبه له العامي لأنه لا عهد له بمثل نظمه ومعناه ، واستوعب المراد كله ... وسهل عليه حفظه لقصره وسهولة ألفاظه[1] » .

وتصدى للبلغاء فصنفهم صنفين : أحدهما مائل إلى الالفاظ المعهودة عند العامة كبلاغة عمرو بن بحر الجاحظ ، وقسم مائل إلى الألفاظ غير المعهودة عند العامة كبلاغة الحسن البصري وسهل بن هارون ، ثم يحدث بينهما قسم ثالث أخذ من كلا الوجهين كبلاغة صاحب ترجمة (كليلة ودمنة) ابنَ المقفع كان أو غيره[2] . وأطلعنا على نوع من البلاغة أحـــدثه ابن درّاج في الأندلس « ما بين الخطب والرسائل[2] » ومن أتى بعد هؤلاء من المتأخرين فحكمه منهم (أنهم بعيدون عـن البلاغة ومقربون مـن الصلف والتزيد ، حاشا الحاتمي وبديع الزمان فهما مائـلان إلى طريقـة سهل بن هارون[2]) .

ولا يختم كلامه قبل أن ينبه إلى قيام البلاغـة على ركيزتين الملكـة

١ – التقريب لحد المنطق ص ٢٠٤ .
٢ – المصدر السابق ص ٢٠٥ .

والثقافة العامة[1] مع كثرة ممارسة الكلام البليغ (ولا بد لمن أراد علـم البلاغة من أن يضرب في جميع العلوم . . بنصيب، وأكثر هذا القرآن والحديث والأخبار وكتب عمرو بن بحر ويكون مع ذلك مطبوعاً فيه وإلا لم يكن بليغاً ، والطبـع لا ينفع مع عدم التوسع في العلوم[2]) .

هذه بعض آراء الرجل وفلسفته في اللغة وعلومها ، أمكن اقتطافها وتنسيقها مما سمح به الزمن من مؤلفاته التي سلمت وطبعت ، والأمل كبير في نشر ما تحتفظ به المكتبات والمتاحف من التراث (الحزمي)، وكتب التاريخ والتراجم لم تتعرض لأثر له خاص في اللغة وعلومهـا ، والفضل كل الفضل للإمام الذهبي محدث دمشق وأخباريها في المئة الثامنة للهجرة، فقد وجدنا في ترجمته لابن حزم المقتطعة[3] من كتابه (سير النبلاء) ما لم نجـد

١ – ذكر مقوماتها في عصره قبل ذلك وهي : علم القرآن وعلم الحديث وعلم المذاهب وعلم المنطق وعلم الفتيا وعلم اللغة وعلم الشعر وعلم الخبر وعلم العـــدد وعلم النجوم وعلم البلاغة وعلم العبارة .
٢ – التقريب لحد المنطق ص٢٠٥.

٣ – أرسل إلي هذه الترجمة عقب طبـع كتابي (ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة) بدمشق سنة ١٩٤٠ نصير العلم الشيخ محمد نصيف وجيه جدة والحجاز سنة ١٩٤١ استنسخها من (سير النبلاء) المخطوط في خزانة الإمـام يحيى حميد الدين وتفضل بإرسالها ولم يكن بيننا معرفة قط ، فرأيت من الواجب تعميم نفعها فنشرتها في مجلة « المجمع العلمي العربي » بدمشق في المجلد السادس عشر –

في غيرها ولا سيا في تعداد مصنفاته فقد جاء في ذيل كتبه الكبار أسماء ما ألفه في جزء أو كراس ، يتعلق منهـــا بموضوعنا خمس رسائل هي [1] :

١ ـــ مؤلف في الظاء والضاد .

٢ ـــ شيء في العروض .

٣ ـــ تسمية الشعراء الوافدين على ابن أبي عامر .

٤ ـــ التعقيب على الإفليلي في شرحه لديوان المتنبي .

٥ ـــ بيان الفصاحة والبلاغة .

ولئن كان هذا ضئيلاً جداً في الدلالة على ملكاته اللغوية والأدبية ، إن كتبه العظام في الشريعة وجدله القوي في نصرة مذهبه، معارض زاخرة تجلى فيها صياله وجولانه في ميدان اللغة بما يدل على تمكن قوي وحسن استخدام لمعارفه فيها والتزامه المنهج السليم في الاستدلال على ما يريـد . وكم أحبط حجج خصومه بدقته اللغوية . وقد ظهرت آثار ثقافته اللغوية

ـسنة ١٩٤١ ثم نشرت على حدة نشراً محدوداً. ومزية هذه الترجمة انفرادها باستقصاء مؤلفاته على قدر الامكان ، فقد حفظ لنا أسماء سبعين مؤلفاً ، على حين لم أستطع في كتابي عن ابن حزم أن أجمع أكثر من (٥٣) وبعضها لا ذكر له في هـــذه السبعين ، إلى مزايا أخرى ذكرتها في مقدمتي لتلك النشرة .

١ ـ أنظر ص ٢٧ من نشرتي لترجمة الذهبي له .

حتى في تراثه الأدبي حين عالج موضوعات الحب ، وكانت المصطلحات العلمية على طرف لسانه في هذه الموضوعات ، وقد سبق من قبلُ قوله في موضوع غزلي :

ألم تر أني ظـــاهري وأنني   على ما أرى حتى يقوم دليل

وقال في موضوع آخر :

أبت عن دنيّ الوصف ضربة لازب
كما أبت الفعلَ الحروف الخوافض [1]

ليس لابن حزم إذاً ـــ في حدود ما وصل إلينا ـــ كتاب في النحو ، ولم يعرف بإمامة فيه ، (وليس يلزم من اهتمامه بعلوم الشريعة ، وتركه فيها المؤلفات الجليلة الحسان التي سارت بذكرها الركبان ، ألا يكون من أولي الشأن في النحو بل من أهل الرأي في أصوله ، ومن غير البعيد لو تركت له الشريعة فراغاً أن يترك في النحو آثاراً أصيلة مبتكرة) [2] .

أما فلسفته في اللغة فقد مررنا بشيء منها غير قليل .

★ ★ ★

١ ـ طوق الحمامة ص ٨٣ مصر ١٩٥٩ .

٢ ـ من كلمة لنا في صحيفة المعهد المصري بعنوان (هـــل في النحو مذهب أندلسي ؟) ـ المجلدان السابع والثامن (مدريد ١٩٥٩) .

أستطيع أن أختم الكلام الآن فموضوعي (نظرات في اللغة عند ابن حزم) ولو كان الموضوع (لغة ابن حزم) للزمني أن أطوف في رياض أدبه شعره ونثره وجميع مؤلفاته ، هذا العالم المسحور المائج بالصور الأخاذة والخلجات البارقة والتعابير اللألاءة والرقائق المسكرة ، فإن أنا عرضت لخصائص أسلوبه الأدبي لم يكفني كتاب برأسه، ولقد سحرني قبل خمسة وعشرين عاماً بفقره التي يقطعها في «طوق الحمامة» في سلاسل تصويرية بارعة ، ورنات موسيقية تلمس شغاف القلب ، وحكمت لهامن يومئذ بأنها أوقع في النفس وأحلى من تقطيعات الجاحظ لفقره[1] ، وأن أناقة أسلوبه أثر البيئة المترفة والنفس الجميلة معاً . فلأدع الإشارة الى لغته لغير هذه النظرات ، لأنقل اليكم بيتين على ظهر مخطوطة من كتابه (التقريب لحد المنطق) كنت اطلعت عليها في المكتبة الأحمدية[2] بجامع الزيتونة في تونس الحبيبة عمرها الله ورحم قائلها، بيتين يعبران عن إعظامي لروح ابن حزم الكبيرة وعبقريته الفذة ، ولعلهما يصوران شعور كل من طالت صحبته لآثار ابن حزم وتعاظمته آفاقها المتعددة الواسعة :

---

١ – انظر فصل (أدبه) وما بعده ص ٧٢ من كتابي (ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة) .

٢ – رقم ٦٨١٤ وكان ذلك في ١٩٥٦/١٠/٤ .

رأيت ابن حزم ولم ألقه ... فلما التقينا به لم أره
لأن سنا نوره مانع ... عيون البرية أن تبصره

دمشق : أول عيد الأضحى المبارك سنة ١٣٨٢ هـ
١٩٧٣/٥/٣ م

سعيد الافغاني

اقامت مدينة قرطبة تمثالا للامام ابن حزم على باب اشبيلية (احد ابواب قرطبة) حيث كان يمر ابن حزم كل يوم الى المسجد من سوق العطارين .

وفي المهرجان العظيم الذى أقيم فى قرطبة بعد انقضاء (٩٠٠) سنة على وفاته ، أزيح الستار عن تمثاله قبل ظهر الاحد فى ١٢ / ٥ / ١٩٦٣ فى حفل رسمي برياسة حاكم المنطقة ومحافظ قرطبة (القلدى ـ القاضى) وكبار رجالاتها بالبستهم الرسمية التقليدية بحضور الوفود الدولية المشتركة ، والعقائل ينثرن الزهور على بركة عند قاعدة التمثال .

وقد نحت على أعلى قاعدة التمثال سطر بالخط الكوفى الاندلسى ، دائر على جهاتها الاربع هذا نصه :

بمناسبة الذكرى المئوية التاسعة لوفاة ابي محمد علي بن احمد بن حزم ، تقدم قرطبة اصدق التحية لمن تعتبره ابنا من اعظم ابنائها .

